# يابو قصة قصيرة من مجموعة «سُيَّاح الزمن الميت»

**للتركي المعاصر حسن علي طوبطاش ــ ت.فاروق مصطفى**

منذ كم سنةٍ لم ترَ هذه الأرجاء؟ سألني أنور.
أجلت بصري برهة في البيوت اللبنيَّة، وفي الأسلاك الشائكة الممتّدة على طول الخطِّ الحديدي، وفي الأراضي السورية خلف تلك الأسلاك الشائكة، وفي بلدة رأس العين الغارقة في ظلام المساء على مبعدة قليلاً."منذ اثنتي عشرة سنة" تمتمت.
ثم أحسست كأنَّ هذا الزمن الذي أسميته اثنتي عشرة سنة قد انسحب وامَّحى من ذاكرتي بكلِّ ما فيه، وشعرت فجأة كأنني عدت لأمضي خدمتي العسكريَّة في هذه البلدة. فوجدت نفسي بين صهيل الخيول، وقطعان الغنم، وأزيز الرصاص، و«بالات» الشاي.
صدغاي يكادان يتفجرَّان، والليالي المشبعةُ برائحة الموت، والتي لا تفيد سوى في إشاعة مزيد من الخوف تتهالك على جبيني مثل حصانٍ هاربٍ جريحٍ، فأنسحق تحت وطأتها، وأقف عاجزاً عن التعبير، بالقول أو بالكتابة، عن مشاعري تجاه غطاءِ رأسِ امرأةٍ، ملطخٍ بالدم بقي فوق الأسلاك الشائكة، وحصانٍ مصوَّب برصاصة يئنُّ في المنطقة الملغومة، ويدِ جنديٍّ صديق توقَّفت فيما كانت تمتد نحو قصعة البرغل، أو مئات النَّظرات المودِّعة التي تسيل وتجري وراء القطارات القادمة والمغادرة. تذكرت كيف كنت أعيش أغبى أنواع الموت العشوائي، إذ كنت مجرد كتلة من لحم وعظم فقط، وقد تحوَّلت عيني إلى شعيرة بارودة، وتحوَّل إصبعي إلى زناد." شردت ثانية" قال أنور.
أشعل كلٌّ منا سيجارة، وكنَّا قد سحبنا النَّفَس الأول عندما سمعنا إجهاش أحدهم بالبكاء في ظلمة الليل. ثم تحوّل الإجهاش إلى نواح مخنوق. نظرت إلى أنور بعينين متسائلتين." هذا يابو "قال وهو ينفث الدُخان من فمه بلا انتظام"إنه يبكي كل ليلة".
سألته: «لماذا؟». أجاب: هكذا، يبكي. فهمت أن البكاء كان نوعاً من أنواع الإشارة عند يابو الهرم المسن الذي لا أحد له؛ والذي كان يجلس كلَّ ليلة فوق سطح داره، ويحدِّق النظر في أضواء رأس العين، ويدخِّن السجائر حتى الفجر. وعندما تنفد سجائره، أو عندما تقف في زوره فجأة وحدتُه التي يكابدها منذ سنين، يجهش بالبكاء هكذا حتى يأتي أحدٌ ما إليه.
قلت لأنور: «في هذه الحالة، هيا بنا نذهب إليه». مشينا وقطعنا أزقة ضيقة، ثم صعدنا إلى السطح.
سكت يابو عندما سمع وقع أقدامنا، كان قد أسند ظهره إلى المدخنة اللبنيّة، وأدار وجهه نحو سورية. تظاهرنا بأننا لم ندرك أنه تظاهر بعد رؤيتنا، فمددنا لأنفسنا حَشِيَّتين بجانبه، ووضعنا علبة سجائر أمامه.
مع إشعاله السيجارة الأولى توقَّف ارتجاف ذقنه، ثم خف قليلاً ظلام الليل المتراكم على تجاعيد وجهه. وبعد أن مدَّ ساقيه العاريتين داخل العتمة، راح يابو يتحدَّث ببطء وتمهل، لم يعط أحداً دوراً بالكلام على مدى ساعات،ويبدو أنه حكى لأنور كل شيء سابقاً، لأنه كان يتمُّ جملته في وجهي. كان يعيش أيامه الماضية من جديد، وهو ينفث دخان سجائره في أنفي وفي أذني. ونظراً لإطفائه سيجارة وإشعاله الأخرى مباشرة، تساءلت هل كان يدخِّن لأنه كان يحكي، أم أنّه كان يحكي لأنَّه يدخِّن، وفيما أنا كذلك ذهبت معه وجئت إلى ما قبل سنوات وسنوات.
أفهمني يابو أنه مهرِّب سابق، وأنه كان في شبابه يقفز كالغزال بين الألغام، وأنه كان أسرعَ من الرّصاص، وأقسى من الصّخر. وأنه أمضى السِّنين وهو يروح ويغدو من هذا الطَّرف إلى ذاك الطَّرف، وأنه خاف مرّة واحدة فقط من الألغام ومن الدَّرك. ويذكر الليلة التي خاف فيها كأنها ليلة البارحة, لم يكن حِمله في تلك الليلة بالة شاي ولا جُوالِق حرير. كان حمله عروساً عليه أن يوصلها إلى رأس العين .
وكانت العروس هي ابنته الوحيدة غزل التي ليس له سواها. نزلا بحصانين إلى وادي الخابور، وانتظرا عند جذوع أشجار الحور ممسكين بفكي الحصانين داخل أكفِّهما، إلى أن دسَّ القمر أنفه بين طيَّات الغيوم، وحين غابت الأضواء الكشّافة الصّادرة عن سيارة الدورية خلف مزارتبه، وراحت تلعق وجه السَّماء، قادا حصانيهما واجتازا الأسلاك الشائكة.
اقتربا من بيوت رأس العين المليّسة والمطليّة بالحوّار الأبيض، والدِّيَكة تصيح. استقبلهما جمع المحتفلين بالعرس بسراويلهم التي تطيِّرها الريح .وعند ضحى اليوم الثاني بدأ العرس، وفيما كانت قدور الأرز التي يَحمل كلاً منها أربعة أشخاص ترفع فوق النار، كانت أصوات الطُّبول والزُّمور ترتفع في السماء، فينتشر قسم منها على شكل سحابة زاهية الألوان تتجه نحو حلب، بينما يعبر قسم منها أزقة جَيلان بينار ويصل إلى أورفه. بعد انتهاء العرس الذي استمرَّ ثلاثة أيام بلياليها، عاد يابو إلى تركيا. سارت معه ابنته غزل وعريسها يودِّعانه حتى مشارف رأس العين. كان الليل قد انتصف عندما حان وقت الفراق فتوقفوا، ومالت غزل تقبِّل يده، فتدحرجت دمعتان من عينيها، وقالت:سيكون تقبيل يدك مرّة أخرى صعباً يابو، وفعلاً حدث ما توقعته، فبعد تلك الليلة، لم تستطع تقبيل يد أبيها لسنوات، كما لم يستطع أبوها أن يفتح ذراعيه هكذا، ويلتفّ بابنته ولو مرَّة.